في جنائن الغرب

« سويفت » كاتب انكليزي اشتهر بكتابة « رحلات جُلّفر » وبينها وبين اسفار السندباد البحري بعض المشابهة . وقد اودعها حكماً وابحاثاً عمرانية في قالب فكاهي لذيذ . ويتضمن هـذا الكتاب خبر رحلته الى « ليليُت » وهي بلاد لا يزيد طول الواحد من سكانها — على ما يزعم — عن اصبعين ، وخبر رحلة الى بلاد « بربدنجاج » التي يسكنها المردة العظام . وقد نشر هـذه الرحلات باللغة العربية حضرة البارع عبد الفتاح صبري بك وكيل المدرسة السعيدية . ونحن نقتطف اليوم شيئاً عن الرحلة الاولى وما شاهد فيها من صغر السكان :

رحلة جُلّفر الى ليليُت

(بعد نزولي الى الشاطئ وانتشار خبري في المملكة) حضر سفير عظيم الشأن من بلاط جلالة ملكهم ، فتسلق على اكتاف حجابه حتى وصل الى اخمصي ، وأقبل يمشي نحو رأسي فقطع المسافة في اكثر من ربع ساعة . . . وألقى خطبة لبث فيها اكثر من عشر دقائق كان في أثنائها يشير الى جهة بعيدة علمت بعد ذلك انها عاصمة هاتيك البلاد ، وان الامر قد قرَّ على نقلي اليها . . .

ويظهر انهم حالما علموا بوجودي وأنا نائم اوفدوا بريداً الى جلالة الملك ليبلغه ذلك الحادث الجلل فأصدر أمراً بشد وثاقي وصنع مركبة تحملني الى العاصمة

(فاشتغل مئات من النجارين بصنع مركبة عظيمة حُمل عليها وجرَّها الى

العاصمة الف وخمسمئة جواد ولما وصل اليها طلب منه الملك ان يسمح للمفتشين بتفتيشه)

فأطعت أمره وادخلت رجلين في جيوبي واحداً بعد الآخر فكتبا محضراً بكل الموجودات وهذا نصه ·

١ - قطعة قماش كبيرة للغاية تصلح لان تكون بساطاً جميلاً في حجرة الاستقبال الكبرى بالقصر الملكي

٢ – صندوق عظيم من اللجين مغطى بغطاء من نفس هذا المعدن النفيس لم نقدر على حمله فطلبنا من « الرجل – الجبل » فتحه ونزلنا فيه فوجدناه مملوءاً بأكوام من التراب ، هبَّ هباؤها في الهواء عند دخولنا فجعلتنا نعطس عطساً شديداً مؤلماً

٣ – اضبارة هائلة مطوية على بعضها وفي طول ثلاثة رجال كانت مربوطة بجنزير طويل

٤ – آلة عظيمة مركب في ظهرها عشرون عموداً بطول الاعمدة القائمة في فناء القصر الملكي يحتمل ان يستعملها في ترجيل شعره . . . . .

٨ – جنزير عظيم من الفضة معلق باحدى جيوبه وفي نهايته آلة عظيمة ، نصفها من الفضة ، والنصف الاخر من مادة شفافة ظهر لنا من ورائها رموز غريبة ، فمددنا يدنا لجسها فحالت دون ذلك تلك المادة . ثم ادنى هذه الآلة من اذاننا فسمعنا دوياً كدوي الساقية او الطاحون . ولا ندري اذا كانت حيواناً او الهاً يعبد ، لانه قال لنا انه لا يعمل عملاً دون ان ينظر اليها فانها هي التي تحدد اوقات جميع اعماله

(وقد نشبت حرب اثناء وجوده هناك بين ملك هذه الجزيرة وملك الجزيرة المجاورة فلعب صاحبنا دوراً خطيراً واليك تفصيل الخبر كما رواه) :

اخذتُ منظاري وصوبته نحو الجزيرة فوجدت على شاطئها اسطولاً عظيماً مركباً من خمسين سفينة حربية مدرعة تنتهز هبوب الريح الموافقة حتى ترفع مراسيها وتقلع نحو بلادنا . فاستدعيت مهرة الملاحين وعلمت منهم ان البحر لا يزيد على ثمانية اقدام في اعمق جهاته فطلبت ان يصنع لي خمسون سلسلة وعدد كبير من قضبان الحديد كي اثنيها واجعلها صنانير. ولما جاؤوني بما طلبت غصت في البحر وسبحت حتى بلغت الشاطيء الثاني، وشبكت الصنانير في المدرعات بعد ان ربطتها بالسلاسل وقطعت المراسي، وعدت والاسطول خافي يمخر في العباب سائراً على شكل نصف دائرة كأنه عرضٌ بحري عظيم

وعند عودتي الى البر وجدتُ الملك والوزراء وجميع ارباب المقامات في انتظاري على أحرّ من الجمر وهم يحسبون الف حساب لدهاء اعدائهم وافتدارهم . ولكنَّ نجمَ سعدهم وصل الى السماك عندما برزتُ من الماء قابضاً على السلاسل . فوثبوا فرحاً وسروراً وقلدني الملك سيف الحال اكبر وسام

ولكن الملك لم يكفهِ هذا الفوز المبين الذي لم تُرَق فيه قطرة دم ، ولم تحرّك من أجلهِ رجل ، ولم ينفق في سبيله درهم ، بل طلب مني ان انتهز فرصةً اخرى وآتيه ببقية السفن حتى لا يبقى للاعداء حولٌ ولا طول . غير ان مروّتي ابت ان أؤاتيه على هذا البغي والجور وان اكون

العامل على استعباده امة حرة عاشت السنين الطوال تأبى الضيم . فراجعت الملك في الامر ، واقمتُ عليه الحجج الدامغة عن ضروب السياسة وعبَر التاريخ ، حتى انحاز اغلب الوزراء الى رأيي عندما طرحت المسألة على المجلس . ولكن الملوك لا يقفُ في سبيل اطماعهم حقٌ ولا انصاف ، فتراهم يستعملون كل الوسائط السافلة الدنيئة لبلوغ غاياتهم الجائرة . وينقمون على من يمحض لهم النصح لغير مأربٍ شخصي او منفعة ذاتية . ولم يخالف هذا الملك تلك السنة الشنعاء بل اضمر لي الشر والوقيعة وشاركه في ذلك عدد من الوزراء لغير ذنبٍ اقترفته سوى خدماتي الصادقة

وبعد ان انقضت هذه الحوادث بثلاثة اسابيع حضر ستة سفراء من قبل حكومة الاعداء ليقرروا عقد الصلح وشروطه . فساعدتهم بكل ما استطعت من قوة الحجة حتى وفقوا الى عقد معاهدة غير شائنة ولا جائرة . فحضروا الى بيتي يوماً في زيارة رسمية ليشكروا حسن صنيعي واكدوا لي ان ملكهم يمتلئ سروراً وفرحاً اذا زرتُ بلاده . فوعدتهم انني سأنتهز اول فرصة للتشرف بالمثول بين يدي مليكهم . على ان ملكنا بات من ذاك الحين يرمقني بعين ملؤها الاغضاء والجفاء ، ولم اعرف لهذه المعاملة سبباً إلاَّ اخيراً حيث تبين لي ان بعض الوزراء وشى بي ونقل حديثي مع سفراء الاعداء . فكان ان حنق عليَّ الملك . وصمم على تعذيبي ان لم يقدر على الفتك بي . فشعرت لاول مرةٍ بمبلغ الوشايات والمكايد التي تنجم عن الاحتكاك ببلاط الملوك

تعريب عبد الفتاح صبري سويفت

جرنالوفوبيا وجرنالوفاجيا

« كتبها الدكتور شميل لما كان صحافياً يصدر « الشفاء » منذ ٢٥ سنة »

الاول معناه « الخوف » من الجرائد والثاني « التهامها » — وقد نحت لهما بعضهم اسمين عربيين ، فسمى الاول « الجنفرة » من الجرنال والنفور والثاني « الجبلعة » من « البلع » او « الجأكلة » ايضاً من « الاكل » . وهما مرضان لم يسبق لاحد وصفهما . ومن اعراض الاول ان الواحد اذا ورد له جريدة ملفوفة بادر على الفور الى ردها وكتب على غلافها « مرفوض » او « مرضوض لم مرتب » وهو مرض حميد . ومن اعراض الثاني ان الواحد يقبل الجريدة اذا لم يردها في آخر سنتها ولكنه يلتهم ثمنها، وهو مرض اشد ضرراً من الاول ، وقال بعض المحققين بل المرضان طوران مختلفان لمرض واحد كالخنازيري والسل ولو كره البرفسور بتر[1] . والحق يقال ان الذنب ليس على هؤلاء وحدهم بل على اصحاب الجرائد ايضاً فانهم هنا خلافاً لاوربا يطرحون جرائدهم على الناس خوفاً من انهم لو

---

(١) البروفسور بتر احد مشاهير الاطباء الكاثنيكيين الفرنساويين على عهد اول اكتشاف المكروب . فكان اذا كررت عليه لفظة مكروب ثلاث مرات يكاد يغمى عليه . وقد رد ذات يوم على من زعم ان الخنازيري والسل مرض واحد بحجة ان الباشلس الضمي يلتقي في كليهما بقوله «لو اتاك فلاح واهدى اليك تفاحة وكمثراة وانت قلت له انهما ثمر واحد بحجة ان قاعدتهما الحامض التفاحيك لما وسعه الا ان يجيبك بقوله : مع كل احترامي لعلمك ياسيدي العالم لا اصدق الا انهما ثمرتان مختلفتان . اه

حذوا حذو اهل اوربا ولم يرسلوا الجريدة الاّ لمن يطلبها ويدفع ثمنها سلفاً لربما لم يجدوا مشتركاً — فها نحن قد وصفنا الداء فعلى الطبيب الحاذق ان يصف الدواء —

سَبلى سَمبل

في حدائق العرب

﴿ حرب البسوس ﴾

كانت العرب تقول في امثالها « أشأم من البسوس » لان هـذه المرأة كانت سبباً في نشوب حرب طاحنة بين القبائل . وتفصيل الخبر ان البسوس هـذه نزلت على ابن اختها جساس بن مُرّة ، فكانت جارة له ، ومعها ابنٌ لها وناقة خوارة مع فصيلها ، واسم الناقة سراب . وقيل ان الناقة لرجلٍ من بني جَرْم نزل بالبسوس . فخرج كليب (زوج جليلة أخت جساس) يوماً يتعهد الابل ومراعيها ، فأتاها وتردد فيها . وكانت ابله وابل جساس مختلطة ، فنظر كليب الى سراب فأنكرها . فقال له جساس وكان معه : « هذه ناقة جارنا الجرمي »

فقال : لا تعد هذه الناقة الى هذا الحمى

فقال جساس : لا ترعى ابلي مرعىً إلاّ وهذه معها

فقال كليب : لئن عادت ، لا ضعنّ سهمي في ضرعها

فقال جساس : لئن وضعتَ سهمك في ضرعها ، لأضعنّ سنان رمحي في صلبك . . . ثم افترقا

وقال كليب لامرأته : أترين أن في العرب رجلاً مانعاً مني جاره ..؟

فقالت : لا أعلمه الا أخي جساساً ... فحدثها بالحديث . وكان بعد ذلك اذا أراد الخروج الى الحمى منعته وناشدته الله ألاَّ يقطع رَحِمَهُ ، وكانت تنهي أخاها جساساً ان يسرّح ابله

وكان كليب ذا زهو شديد لما هو فيه من العز وانقياد القبائل له ، حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى ، واذا جلس لا يمر أحد بين يديه اجلالاً . ولا توقد نار مع ناره ، ولم يكن تغلبي ولا بكريٌّ يجيرُ رجلاً اويحمي حمىً إلاَّ بامره . وكان هو يجير على الدهر فلا تخفر ذمته . ويقول : وحش ارض كذا في جواري فلا يهاج . وكان يحمي الصيد فيقول : صيد ناحية كذا في جواري ... فلا يصيب أحدٌ منه شيئاً . وكان قد حمى حمىً لا يطأه انسان ولا بهيمة ، فدخل فيه يوماً فطارت قبّرةٌ من على بيضها فقال لها من ابيات :

لا ترهبي خوفاً ولا تستنكري　　قد ذهب الصيادُ عنكِ فابشري
خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري　　فانت جاري من صروف الحذَرِ

واتفق ان كليباً بعد خلافهِ مع جساس خرج الى الحمى فوجد بيض القبّرة قد وطئتها سراب ناقة البسوس فكسرتها ، فغضب وأمر غلامه ان: ارمِ ضرعها .... نخرقه بسهمٍ وقتل فصيلها . وولت سراب ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها . فلما رأت البسوس ما اصاب الناقة ، ضربت وجهها وانتزعت خمارها وصاحت : واذلاه ..!

فقال لها جساس : اسكتي . فلكِ بناقتك ناقة اعظم منها . فابت ان

ترضى . ولما كان الليل ، انشأت تقول ، وهي تخاطب سعداً اخا جساس ، وترفع صوتها لتُسمعَ جساساً :

أيا سعدُ لا تغرر بنفسكِ واحترزْ فانيَ في قومٍ عن الجارِ اموات
ودونك اذوادي اليكَ فانني محاذرةٌ ان يغدروا بينياتي
لعمركَ لو اصبحتَ في دار منقرٍ لما ضيم سعدٌ وهو جارٌ لابياتي
ولكنني اصبحتُ في دار معشرٍ متى يعدُ فيهاالذئبُ يعدُ على شاتي

(وسمّت العرب ابياتها هذه الموثبات) . فقال لها جساس : اسكتي. اني سأقتل جملاً اعظم من هذه الناقة . سأقتل علالاً ... وكان علال فحل ابل كليب . وقد اراد جساس بهذا القول كلياً نفسه

ثم ان جساساً مكث يتندّسُ الخبر عن كليب حتى بلغه ذات يوم انه خرج وليس معه سلاحهُ فتبعه وصرخ به : يا كليب الرمح وراءك ..!

وكان كليب لا يلتفت وراءه من الكبر فقال : ان كنتَ صادقاً فاقبل اليَّ من امامي ... ولم يلتفت اليهِ فطعنه جساس فارداه . ثم اجتزَّ رأسه ولما عاد الى الديار سأله مُرَّة : ما وراءك يابني ؟

قال : طعنتُ طعنةً لتشغلنَّ شيوخ وائل رقصاً . . . قال : اقتلتَ كليباً .. ؟ فاجاب : اي وأنصابِ وائل ايَّ قتل ...

فقال ابوه : اذن نسلمك بجريرتك ، ونريق دمك في صلاحِ العشيرة ، فلا انا منك ولا انتَ مني . فواللهِ لبئس ما فعلت . فرّقت جماعتك ، واطلتَ حربها ،

وكان همام أخو جساس القاتل ينادم في ذلك الوقت المهلهل [1] أخا كليب المقتول ويعاقر معه الخمرة فجاءته جارية تخبره الخبر. فقال له المهلهل: ما قالت لك الجارية . . ؟ وكان بينهما عهد ان لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً . فذكر له ما قالت الجارية فقال المهلهل : « اليوم خمر وغداً أمر » فشرب همام وهو خائف حذِرٌ ولما سكر رفيقه عاد الى قومه وتأهبوا للقتال

أما المهلهل فانه رجع الى الحي فرأى القوم يعقرون خيولهم ويكسرون رماحهم وسيوفهم، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ لقد ذهبتم شرَّ مذهب . أتعقرون خيولكم حين احتجتم اليها ، وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم اليه ؟

ولما اصبح المهلهل غدا الى أخيه فدفنه وقام على قبره يرثيه (من أبيات) :

دعوتك يا كليبُ فلم تجبني وكيف يجيبني البلدُ القفارُ
سقاك الغيثُ انكَ كنتَ غيثاً ويسراً حين يُلتمس اليسارُ
خذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عمري بتركي كلَّ ما حوتِ الديارُ

---

(١) هو ابو ليلى عدي بن ربيعة ولقب مهلهلاً لانهُ أول من هلهل نسج الشعر أي ارقهُ . وقيل لانهُ هو المنشد :

لما توغل في الكراع هجينهم هلهلتُ اثأرُ مالكاً او صنبلاً

هلهلت أي رجّعت الصوت . وكان المهلهل في اول امره صاحب لهو كثير المحادثة للنساء، فسماه اخوه كليب زير النساء أي الذي يميل الى محادثة النساء لغير شرّ على نوع ما يسميه الافرنج Flirt

وهجري الغانياتِ وشربَ كأسٍ ولبسي جبـة لا تستعارُ
ولستُ بخالعٍ درعي وسيفي الى أن يخلعَ الليلَ النهارُ
وإلا ان تبيـدَ سراةُ بكرٍ فلا يبقى لهـا أبداً أثارُ

ثمَّ جزَّ شعره ، وقصَّر ثوبه ، وهجر اللهو ، وحرَّم على نفسه الشراب . وأرسل رهطاً من أشراف قومه وذوي اسنانهم ، فأتوا مُرَّة وهو في نادي قومه . فقالوا له :

« انكم أتيتم أمراً عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الابل ، وقطعتم الرَّحِم وانتهكتم الحرمة بيننا وبينكم : وانّا نعرض عليك خلالاً أربعاً ، لك فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع . إما ان تحيي لنا كليباً ، أو تدفع الينا قاتله جساساً فنقتله به ، أو هماماً فانه كفوء له ، أو تمكنّا من نفسك فان فيك وفاءً لدمه »

فقال لهم مُرَّة : « أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه . وأما دفعي جساساً اليكم ، فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أيّ بلادٍ قصد . وأما همام فانه ابو عشرة واخو عشرة وعمّ عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره . أما أنا فما هو الا ان تجول الخيل جولة فاكون اول قتيل بينها ، فلا أتعجل الموت . ولكن لكم عندي خصلتان : أما احداهما ، فهؤلاء ابنائي الباقون فخذوا ايهم شئتم واقتلوه بصاحبكم . وأما الأخرى ، فاني أدفع لكم الف ناقة سود الحدَق حمر الوبر »

فغضب القوم وقالوا : « قد أسأت ببذل هؤلاء ، وتسومنا اللبن من دم كليب » ونشبت الحرب بينهم وظلت اربعين سنة بسبب ناقة

البسوس . وبقي الحرث بن عباد على الحيادة قائلاً : « لا نافة لي في هذا ولا جمل » فذهبت مثلاً . وكان مقتل كليب سنة ٤٩٤ للمسيح

من القفص الى العش

في قفصها الجميل ، كانت الحمامة الاسيرة تنوح وتحنُّ الى الحرية . .

ترى امامها الفضاء فسيحاً ، فتحاول الطيران ، فتهشم جناحيها اللطيفين على الحواجز الصلبة ، فيضيق بها رحب الفضاء ...

تسمع اخواتها صادحاتٍ على الافنان ضحىً واصيلاً ، وهي قُضي عليها ان تئن وتنوح بين قضبان الحديد ...

ترى الحدائق الغناء والرياض الخضراء والمياه المتسلسلة والجبال الشاهقة والاودية الظليلة ، فتتزايد اشجانها وتتضاعف احزانها لدى جمال الطبيعة كأنه خلق ليتمتع به سواها

هذه هي حالة المرأة الشرقية في امسها

* * *

يدٌ شفيقة حركها عامل الرحمة ، ففتحت باب القفص وافرجت عن السجينة المسكينة ... طارت الحمامة الى الشجرة ، فنفضت ريشها وعادت اليها الحياة : غنت لمرأى الزهرة في الوادي ، وهدلت مع هدير النهر المتدفق من الجبل . وقد زقزقت خلاصها العصافير وغردت لنجاتها الطيور

تنشقت الحمامة من هواء الحرية ما شاءت ، ثم صفقت بجناحيها